

كتب تاريخية



كتاب عاشوراء في خطاب المقاومة الإسلامية

يشكّل كتاب الأستاذ الدكتور علي زنتون "عاشوراء في خطاب المقاومة الإسلامية" منطلقاً ضرورياً لإعادة دراسة مفهوم الخطاب بشكل علمي وأكاديمي، يُخرجه من العشوائية والمزاجية التي تتحكم به، لتجعله قائماً على قواعد وأسس واضحة، تتطرق من تأسيسات عميقة تبحث في ماهية اللغة ودور الخطيب، وصولاً إلى أصل الموضوع الذي سيعالجه، وهذه الورقة ستقدّم قراءة للكتاب، تعمل على القاء الضوء على بعض النقاط التي أثارها دون أن يعني ذلك القبض على مضمون الكتاب، الذي سبّك بشكل محكم ليكون تأسيساً لآليات جديدة في قراءة الخطاب.

يبدأ الكتاب بتحفيظ ذهنية القارئ من خلال عنوانه، الذي يطرح العلاقة بين واقعة كربلاء وخطاب المقاومة الإسلامية وحول تركيبة الجملة الخبرية فشير إلى حضور عاشوراء في أصل الخطاب، وكما نعلم فالجمل الخبرية تأتي لتخبر عن شيء وتصفه كما هو، وهذا يُنبئ عن حلول سيطرة وسلطة من الواقعة على الخطاب لتستحوذ عليه، وهذا يجعل النص محكوماً بهذه الواقعة منقاداً لها، فكيف يمكن لمفهوم الخطاب الذي صيغ في المنظومة الغربية كوسيلة للقبض على الآخر والتحكم به أن يكون بذاته تابعا لغيره؟

يبحث الكاتب في مفهوم الخطاب عبر العودة إلى المصادر الأساسية التي اشتغلت على هذا الموضوع ليستفيد منها، دون أن يستغني عنها، وينبئ مقولاتها، بالتالي عمل الباحث على إظهار ما هو سائد من دراسات، واستثمر فيها ليتخطاها، ويبني عبرها منظوره الخاص. لذلك نراه يرافق هذه الدراسات التي عملت على الخطاب، مقام باستعراضها بشكل علمي، ليجعل منها مدخلا لإعادة صياغة مشروع جديد، يقدم مقاربة جديدة، ومن أجل تثبيت هذه الغاية لا يكتفي بالعودة إلى مفهوم "الخطاب" للعمل عليه، بل نراه يعمل على ربطه مع اللغة، وفي هذه الصعيد كان دقيقاً، فما يسعى إلى تأكيده هو موضوعة الكلام في سياقها الطبيعي في إطار اللغة، صحيح أنّ اللغة ليست واحدة من ناحية الاستخدام، والناظر إليها سيجد: "لسانين مختلفين: لسانيات الجملة ولسانيات الخطاب. لسانيات الجملة لا تتعلق دلالاتها بظرف اللغة: من نظام معجمي، ونظام صرفي، ونظام نحوي بإنتاج دلالاته بمعزل عن أيّ وضعية غير لغوية... أما لسانيات الخطاب فمتعلقة بموقف يوجه دلالة الخطاب بما يجعل الأنظمة الثلاثة المتكوّنة للنظام اللغوي العام حيادية إلى حد بعيد فيما يتعلّق بالحاصل الدلالي. ويعني ذلك أنّ المقصود من الخطاب لا يستخلص، بناء عليها، ولكن بناء على موقف وظرف وسياق، بما باتوا يسمونه التفسير التداولي البراغماتي، ولكنها تبقى في الحالتين متعلقة بأصولها، وإن كانت الثانية تحتاج إلى عناصر أخرى خارجة عنها.

أن أشكر كل من وقف في هذه الحركة الإسلامية ودعم الأمة في الإضراب. وعلى الرغم من أن هذه الإضرابات شاقّة، إلا أنها تلعب دوراً مهماً في تعزيز الأهداف الإنسانية للشعب. واصلوا ضريبتكم الكبيرة قدر المستطاع، شلوا جهاز هؤلاء الخونة. إن مساعدة هؤلاء الخونة حرام وضد إرادة الله وطاعتهم بأي شكل من الأشكال هي ضد الإسلام وضد الله ويُعتبر ضرب شركة النفط ومنع هدر ثروات الوطن طاعة لله".

وكان من الأساليب الموقفة التي أتبعها الإمام الخميني (قدس) في الجهاد ضدّ نظام الشاه البائد، دعوته الجماهير إلى الإضرابات العاقمة، وتوسيع مدارها. فقد شملت الإضرابات، في الأشهر الأخيرة من الثورة، مختلف أركان النظام، من وزاراتٍ ودوائر ومراكز عسكرية، حتى امتد الأمر إلى عمال شركة النفط الوطنية والبنوك ومراكز الدولة الحساسة وموظفيها، الأمر الذي وجّه الضربة القاضية إلى جسد النظام.

وأوردت السفارة الأمريكية نياً طلب الإمام الخميني (قدس) بالإضراب مرة أخرى: "يُهدد عمال الكهرباء في أصفهان بقطع التيار الكهربائي لمدة ٢٤ ساعة وهكذا بدأت سلسلة من الإضرابات لتطال معظم مؤسسات الدولة تنفيذاً لأوامر الإمام الخميني (قدس) والتي بلغت ذروتها في أيام عاشوراء. ووفق الملحق السياسي للسفارة الأمريكية في إيران سيميل فإن "دعوات آية الله الخميني (قدس) الفعالة للإضرابات المفتوحة سحقت تدريجياً حكومة "زهاري" العسكرية ودفعتها نحو الانتهاء الكامل".

مظاهرات حاشدة في تاسوعاء وعاشوراء

وبالتزامن مع بداية شهر محرم الحرام، اندلعت مظاهرات واسعة النطاق في طهران، قوبلت بمواجهات دامية من قبل النظام. ومع اقتراب أيام تاسوعاء وعاشوراء، دعا الإمام الخميني (قدس) إلى رسالة شعب إيران إلى مواصلة نضاله حتى الإطاحة الكاملة بالنظام وقال: "إن هذه الأمة الشيعة هي أعظم أمة في التاريخ، التي بأعداد قليلة أسست حركة عاشوراء الكبرى ودققت الدولة الأموية إلى الأبد في مقبرة التاريخ، وبميشية الله عز وجل ستدفن الأمة الحبيبة وأتباع الإمام الحقيقيون -عليه السلام- سلالة بهلوي في مقبرة التاريخ بدماء أبنائها ورفع راية الإسلام في البلاد".

وفي يوم تاسوعاء وعاشوراء، انطلقت المظاهرات المليونية في طهران وسائر المدن الأخرى، والتي أشهزت، فيما بعد، باسم "الاستفتاء غير الرسمي من قبل الجماهير، ضد سلطة الملك"، وفي هذه التظاهرات الضخمة، شارك الرجال والنساء، صغاراً وكباراً، وحتى أطفال المدارس الابتدائية، حاملين الشعارات والصور واللافتات في أيديهم، من كل أركان المدينة من غربها وشرقها وشمالها وجنوبها باتجاه ميدان الحرية. شاركت النساء بقوة في مسيرات التاسوعاء والعاشوراء التي تحوّلت إلى تظاهرات ضدّ النظام البهلوي البائد، وكُنّ يسرنّ في الصفوف الأمامية حاملات أطفالهنّ الرضع، في مواجهة الجنود المدججين بالأسلحة، وطائرات الهليكوبتر تحلق فوق الرؤوس تهديداً.

ورفعت شعارات "الاستقلال، الحرية، الجمهورية الإسلامية" في هذه المظاهرات.

لم يقتصر الحضور الثوري لم يكن خاصاً بطهران فحسب، بل كانت المظاهرات الثورية تجري في كل أنحاء البلاد. وبهذه الطريقة، كانت الاستراتيجيات والتكتيكات التي أعلنها الإمام الخميني (قدس) في شهر محرم عام ١٩٧٨م، قد نضجت وأدت إلى القضاء على النظام البهلوي البائد. ووفق الكاتب مايكل لادن، فإن "عهد الشاه انتهى فعلياً في بداية ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٧٨م في أيام العزاء في شهر محرم، على الرغم من أن رحيل الشاه عن إيران والجهود الرسمية التي بذلتها الحكومة استغرقت وقتاً أطول".



«انتصار الدم على السيف»، استمرار من ثورة الإمام الحسين (ع) إلى الثورة الإسلامية

أصدر الامام الخميني (قدس) التعليمات اللازمة لإسقاط النظام البهلوي البائد في إعلان أصبح يُعرف بـ«انتصار الدم على السيف»

باريس، باعتبارها من هذا التاريخ سنقوم بإسقاط الشاه رسمياً من الحكم. ثم من جميع الجهات وتم إلقاء الغاز المسيل للدموع وبدأت المواجهات، وتم ضرب المسجد ارتقى عدد من الشهداء وأصيب آخرون وتم اعتقال البعض".

مراثيات الثورة

برز في الفترة الممتدة بين سنة ١٩٦٣ م و١٩٧٨م دور بارز للمداحين في إيصال رسالة عاشوراء ومفاهيمها للناس. في عام ١٩٧٨م، رفعت هيئات مذهبية عديدة شعارات ثورية وكثبت رضاء عن الفظائع التي ارتكبتها النظام البهلوي البائد، في تحفيز ودعم واضح للناس من أجل مواجهة هذا النظام. وكان الشعار الذي رددته هيئة بني الزهراء (ع):

أقسم بسلام الحسن، الله ناصرنا أقسم بدم الحسين، الخميني قائدنا/ فلنقيم قياماً جديداً ونقتدي بحسين الزهراء (ع) / نحن جنود ومستعدون للاستشهاد، طريق الحسين هو الطريق الوحيد للسعادة. / لقد قاتل كرجل شجاع، الله أكبر، الله أكبر

توسع الاحتجاجات والاضرابات

وعلى الرغم من أن الاحتجاجات الثورية بدأت منذ شهر أيلول/سبتمبر من العام ١٩٧٨م، إلا أن شهر محرم كان بمثابة فرصة مضاعفة لتوسيع استراتيجية الحملة هذه ونشرها على مستوى النقابات ومؤسسات أخرى. ولهذا السبب ذكر الإمام الخميني (قدس) هذه النقطة في رسالته بمناسبة شهر المحرم الحرام: "يجب

مضى، أن تقوموا بواجبكم الإلهي، وهو فضح جرائم النظام. إن طلاب وعلماء الحوزات العلمية الذين يذهبون هذه الأيام إلى القرى والمدن، من الضروري أن يقوموا بإعلام الفلاحين المحرومين بفظائع الشاه المقيور وقتل الشعب الأعرل، في مقابل دعايات الشاه المقيور وأقاربه المسمومة، فالدولة الإسلامية ليست من الرأسماليين وكبار الملاك؛ فهذه كلمات لا معنى لها ولا تفيد للانحراف عن الطريق الصحيح".

في عام ١٩٧٨م انتقد خطباء المجالس الحسينية الشاه المقيور بشكل مباشر مُعرّفين حكومته على أنها حكومة يزيد، وطلبوا من الشباب عدم الانخداع بوعودها والجهاد ضد الحكومة الظالمة من أجل التخلص من النظام.

وهكذا تحوّلت المواعظ والخطب في مجالس العزاء في كل محافظات ومدن إيران إلى قاعدة انطلاق لمواجهة النظام البهلوي البائد، لدرجة أنها أصبحت تتحدث بوضوح عن إسقاط الشاه المقيور. حجة الإسلام رضوي اردكاني يقول في هذا الصدد: "لقد عُقد اجتماع مهم في مسجد "فاطمي" في مدينة بندر عباس. جاء جميع رجال الدين والوعاظ وزاد الحشد لدرجة أن الشارع والميدان أمام المسجد امتلأ بالناس وحاصرت القوى الأمنية الحضور. فوقفت على المنبر وقدمت تعريفاً كاملاً للحكومة الإسلامية، وقلت: "الحكومة الملكية ليست شرعية؛ خاصة إذا كانت فاسدة، لقد أدنت رسمياً فساد البلاط البهلوي وعائلته وأعلنت رسمياً أنه وفقاً لمرسوم الإمام الخميني (قدس) من

المنازل واحد من إبداعات القوى الدينية والتي حطمت عبرها معنويات العدو في ليالي شهر محرم.

كانت صرخة "الله أكبر" بمثابة مناورة قوة ضد النظام. ماذا هنالك أكثر من صيحة تكبير عالية صادرة من معظم أسطح المنازل في دلالة واضحة على أن الشاه المقيور ليس لديه مكان يقيم فيه في إيران. ويرى السفير الأمريكي سوليفان أن هذه التكبيرات كانت تكتيكا فعالاً وجديداً استخدمه المعارضون الدينون للملك لإظهار قوتهم. وبالإضافة إلى إظهار قوة وكثرة القوى الدينية، كانت هذه المبادرة بمثابة حرب نفسية استخدمت ضد القوى التي كانت تُرعبها الشعارات الإسلامية.

شكلت التكبيرات الليلية كابوساً للملك، لدرجة أنه بعد فراره إلى المغرب، شعر بالرعب عندما سمع صوت الأذان من المسجد. ووفق الصحفي الفرنسي "بيار بلانشه"، "في ليالي محرم الحرام، وصلت هذه الصرخة إلى نوافذ قصر نياوران، قصر الشاه في شمال طهران". خاصة وأن هذا الشعار كان مصحوباً بعبارة "يحيا الخميني" و"الخميني وريث الحسين (ع)".

العزاء رغم المنع والتضييق

لم يهتم الإمام الخميني (قدس) بالمنع الصادر عن النظام لإقامة مجالس العزاء، وذكر في رسالته الشهيرة أن "إقامة مجالس العزاء يجب أن تكون مستقلة وغير خاضعة لإذن الشرطة". أتمم أيها الأعزاء أقيموا مجالس العزاء دون الرجوع إلى السلطات، وإذا مُنعت فاجتمعوا في الساحات والشوارع والأزقة واكشفوا معاناة الإسلام والمسلمين وخيانات نظام الشاه". وفي هذا الصدد، بدأت لجان العزاء والمجالس تعمل دون اللاتفات إلى تحذيرات أجهزة النظام الأمنية. وكتب مراسل السافاك من مدينة مشهد المقدسة: "تم إبلاغ جميع الأشخاص الذين أرادوا تنظيم مجالس العزاء من قبل العلماء والدعاة بعدم الذهاب إلى القوى الأمنية. بل طلب منهم التواصل مع رؤساء الهيئات الدينية وأنه يجب عليهم إقامة مجالس عزاء دون الرجوع إلى السلطات وتحريك مجموعاتهم في الشوارع".

مواعظ وخطب المجالس العاشورانية

إن منابر مجلس عزاء الحسيني هي من أكثر الطرق والممارسات المهمة في الثقافة السياسية الشيعية، وقد قال الإمام الخميني (قدس) حول هذا الموضوع، في رسالته المهمة يوم ٢١ ذي الحجة: "أيها الدعاة والخطباء، عليكم، أكثر من أي وقت

الوقاف / إن كل ما لدينا من محرم وعاشوراء". بهذا يعبر الإمام الخميني (قدس) عن سر انتصار الثورة الإسلامية ومصدر جميع الانجازات التي تحققت على يده الشريفة، فالإمام عالم وعارف وصاحب نظر سياسي ثاقب يكاد لا يوجد له نظير وفهمه الدقيق لعاشوراء هو الذي جعله ينتصر على أعدائه ويحقق حلم الأنبياء فجعل شعار "كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء".

لقد كانت الثورة الإسلامية في إيران مستمدة حرفياً من أهداف ومثل الثورة الحسينية. لقد تأثرت الثورة الإسلامية بها وقد برزت علامات هذه التأثر بوضوح في أفكار وأعمال قادة الثورة - سواء قبلها أو بعد انتصارها. وإثر ذلك، تركت الثقافة العاشورانية عند القادة والمناضلين الثوريين في الحركة الإسلامية، الأثر الأبرز في مواجهة النظام البهلوي البائد. وعلى مدى التاريخ، فإن أهم المواجهات الثورية وأكثرها فعالية حدثت في شهر محرم الحرام ١٩٧٨م، إذ تم تخطيط وتنفيذ كافة الاستراتيجيات والفعاليات والجهود السياسية والثقافية والدينية وحتى الاقتصادية في أيام عزاء الإمام الحسين (ع). ولهذا السبب، في

عام ١٩٧٨م، كان أصدقاء الحركة الإسلامية وحتى أعداءها ينتظرون حدثاً مهماً في شهر محرم الحرام. فتم تشديد وتكثيف الإجراءات الأمنية للنظام البهلوي البائد. إضافة إلى ذلك، كثفت السفارة الأمريكية نشاطها عشية هذا الشهر، مرسله تقاريرها إلى حكومتها بأن "إيران كلها مستعدة لمواجهة كبرى خلال هذا الشهر". ومن جهة أخرى، بدأ الإمام الخميني (قدس) بصفته زعيماً للحركة الإسلامية، بتهئية الأجواء لتوسيع المواجهات مع النظام في شهر محرم الحرام. وقال الإمام (قدس) في مقابلة مع مراسل إذاعة لوكسمبورغ عن شهر محرم: "محرم هو الشهر الذي نهض فيه العدل ضد الظلم والحق ضد الباطل وأثبت أنه على مر التاريخ انتصر الحق على الباطل، وهذا العام، في شهر محرم الحرام، ستقوى حركة الحق ضد الباطل، أمل أن تمر نهضة إيران الإسلامية بمراحلها النهائية في هذا الشهر". إضافة إلى ذلك، وبالتزامن مع شهر محرم الحرام، أصدر الإمام الخميني (قدس) في الحادي والعشرين من شهر ذي الحجة من عام ١٩٧٨م التعليمات اللازمة لإسقاط النظام البهلوي البائد في إعلان أصبح يُعرف بـ«انتصار الدم على السيف".

صرخة الله أكبر في أيام محرم وصلت إلى قصر الشاه

يُعد نداء "الله أكبر" من على أسطح

